دكتور جورج حبيب بباوي

موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية
www.coptology.org

المسيحُ خبزُ الحياة

اتحادنا بالمسيح في الإفخارستيا معطّلاته ووسائله

المسيحُ خبزُ الحياة

اتحادنا بالمسيح في الإفخارستيا

معطلاته ووسائله

دكتور

جورج حبيب بباوي

٢٠٢٣

الفصل الأول

المسيحُ خبزُ الحياة[1]

(١) تفريغ وإعادة صياغة لمحاضرة بعنوان «المسيح خبز الحياة» ألقاها الدكتور جورج حبيب بباوي في مؤتمر أسرة القديس كيرلس عمود الدين الإكليريكية المنعقد بالإسكندرية في الفترة من ٣ إلى ٧ يوليو ١٩٨١.

مقدمة:

في العهد الجديد، وبالذات في إنجيل يوحنا، هناك لغة تشبيهية يبني عليها الرب المسيح نفسه فكرة أساسية، ومن ثم يصوغ لها مجموعة من التطبيقات للتوضيح. ولذلك لا نستطيع أن نفهم هذه اللغة بمعنى حرفي، إنما يجب أن نفهمها بمعنى روحي. وهنا يجب أن يكون واضحًا أن كلمة "روحي" تعنى شيئًا حقيقيًّا، وليس مجرد فكرة أو خيال. وإلى هذه القاعدة تنتمي عبارة "أنا هو خبز الحياة مَن يُقبل إليَّ فلا يجوع ومَن يؤمن بي فلا يعطش أبدًا".

الكلام عن الخبز هنا واضح وصريح، لكن بالرغم من عدم ذِكر المياه صراحةً، إلا أنها متضمَّنة في ذِكر العطش. إذن، الخبز والمياه في مقابل الجوع والعطش. فالرب يسوع المسيح يقول إنه كما أن الإنسان لا يستطيع أن يحيا بدون خبز ومياه، كذلك لا يستطيع أن يحيا روحيًا بدون المسيح. فكما أن الجسد له ما يُقيته، كذلك الروح أيضًا لها ما يُقيتها. الروح لا تستطيع أن تعيش على الأمور المادية الحسية، لأنها تتنافى مع طبيعة الروح، ولكن يجب أن تأكل الروح الطعام الروحاني، ومن هنا جاءت المقارنة بين الإفخارستيا وبين المَن. فجميع الذين أكلوا المَن ماتوا في النهاية. وقد ماتوا بالمعنيين؛ المعنى الجسدي، ويقول عنه القديس بولس الرسول إن الذين أكلوا المن طُرِحَت جثثهم في القفر، وأيضًا ماتوا بالمعنى الروحي، لأن كل الذين أكلوا المن -لم يدخل منهم أحدٌ أرض الموعد- ولذلك، الكلام عن الإيمان هنا مهم وضروري، لأن الإنسان لا يستطيع أن يصل إلى المسيح بدون إيمان، ولا يستطيع أن يتناول الإفخارستيا بدون إيمان. **فالإيمان هو المدخل الوحيد للمسيح.**

أهمية التمييز بين ما هو أسمى وما هو أقل:

ويجب أن ننتبه إلى أن المسيح لم ينفِ أن الجسد يحيا بالخبز، لأنه قال عن الناس الأشرار، إن سألك ابنك خبزًا أفتعطيه حيةً؟ إذن، المسيح لم ينفِ أننا نحتاج إلى الطعام البائد الذي يجب أن نأكله لكي نحيا، ولم يصنع تعارضًا بين الطعام البائد والطعام الباقي، إنما طلب أن يُخضِع الأسمى الأقل؛ أن الطعام الباقي يُخضِع الطعام البائد، وأن كلمة الله التي يحيا بها الإنسان تُخضِع حاجة الإنسان إلى الخبز. ولذلك، في التجربة على الجبل حينما طلب منه الشيطان أن يحول الحجارةَ خُبزًا، قال له المسيح إن الإنسان يحيا بكلمة الله، وهو ما يعني أن تعلُّم الإنسان طاعة الوصية أهم من البحث عن طعام الجسد. **فإن الأسمى يُخضِع الأقل.** وهذه هي النقطة الأساسية التي يجب أن تظهر في المناهج التربوية، بمعنى أن لا يكون هناك فصلٌ بين الجسد والروح، وإنما نعلِّم بخضوع الجسد للروح، وليس الفصل بين الجسد والروح. وقد استغل الرب يسوع المناسبة، قائلاً لهم إن الخبز الذي يجب أن تأكلوه لكي تحيوا حياةً أبديةً هو الخبز النازل من السماء، والذي يختلف تمامًا عن المَن الذي أكله آباؤكم وماتوا. وعبارة «آباؤكم أكلوا المن وماتوا» جاءت مرتين على الأقل في الإصحاح، وكل مَن يأكل مِن هذا المن يموت، وها أنا أعطيكم المن الحقيقي الذي مَن يأكله لا يموت وأنا أقيمه في اليوم الأخير. هذا المن الحقيقي هو جسدي.

وهنا واضحٌ أن اليهود فَهِموا الجسد بمعنى الناسوت، بمعنى اللحم والدم الظاهر، وهذا حقيقي، لأننا لا نستطيع أن نفصل ابن الله عن جسده، وإلا نكون قد نفينا الخلاص إذا حدث فصلٌ بين اللاهوت والجسد. ولذلك قال لهم المسيح إن الجسد لا يفيد شيئًا، حتى

جسده هو، وإنما الروح الموجود في هذا الجسد، لأن جسد المسيح إن لم يكن جسد ابن الله، أي إن لم يكن متحدًا باللاهوت، لا يصير جسدًا "محييًا" فيه مصدر حياة. نحن لا نأكل الناسوت لكي نتغذى، أي نأخذ كمًّا معيّنًا من المواد البروتينية وكذا مواد دهنية وكذا مواد معينة وما إليه. المسيح لم يأتِ ليقدم للإنسان خبزًا للتغذية، وإنما لكي يعطِه خبزًا يأكله الإنسان، فيحيا به هذا الإنسان، وهنا نناقش أربع نقاط أساسية:

١- إن هذا الخبز هو عطاءٌ من الله، الخبز النازل من السماء الواهب حياةً للعالم، وهذا هو ما يجعل الكاهن في أول القداس يمسك القربانة ويرفعها، هذه الحركة الطقسية تعبِّر عن ما قاله يوحنا في إنجيله "هذا هو الخبز الحي النازل من السماء" وكون أن هذا الخبز النازل من السماء يظهر ملفوفًا باللفافة، يعنى أنه لم يظهر كنهه بعد، وهو ما سيُعلن في صلوات القداس نفسه. ويضع الكاهن الصليب خلف الخبز في طقسٍ مستتر، يظهر بالتدريج، وينكشف من خلال الصلوات والقراءات. فهذا الخبز هو عطية، وهذه العطية هي هبة الله.

٢- إن هذه العطية معطاة لكي يأخذها الإنسان. الله يعطي والإنسان يأخذ. من الضروري للإنسان أن يأكل، وإلا لن يعيش. ولذلك يشدد المسيح على أن الذي لن يأكل منه لن يحيا، لماذا؟ لأنه يعتبر هنا رافضًا للعطية. وهذا أمرٌ ثابتٌ في الكتاب المقدس؛ إذا رفض الإنسانُ العطية التي يعطيه إياها الله، يموت، فلا ينفع البحث عن طريق آخر إلا الطريق الذي حدده الله.

النقطة الأساسية هنا، ليست هي أن الله متجبر ومستبد وعندما يضع شرطًا يجب على كل البشر أن يخضعوا له، أبدًا، وإنما الأمر

يتعلق بأن عطية الله هي عطية حياة، فالله مصدر الحياة، فإذا رفض الإنسان الحياة، عليه أن يتحمل نتيجة قراره. الرفض هو رفض هبة الله.

المعاني المختلفة لكلمة حياة:

كلمة «يحيا" لها ٣ معاني. في اللغة اليونانية هناك ٣ كلمات مهمة جدًا؛

(١) كلمة βίος بايوس والتي جاءت منها كلمة بيولوجي، وتترجَم "حياة" بالعربية فيما ندر، ولكن تُستخدَم كلمة "معيشة" أو "عيش"، فالمرأة الأرملة قيل عنها إنها ألقت كل معيشتها βίος بايوس، وهي هنا تعني الحياة الإنسانية العادية في شكلها البسيط.

(٢) كلمة Ζωή زوي، المقصود بها الحياة الأبدية، أينما استُخدِمَت مقصود بها الحياة التي هي من عند الله، هي عطية من الله، وليست هي الحياة اليومية العادية، هذه حياة أعلى كثيرًا من الحياة العادية، لكنها تُعطى هنا في الأرض، وتُعطى في الإناء الخزفي الضعيف الذي نحيا فيه "إذ لنا هذا الكنز في أوانٍ خزفية ليكون فضل القوة من الله لا منا" (٢ كو ٤: ٧).

(٣) ابسيكوس ψυχικός أي حياة النفس، نادرًا ما تُستخدَم عن هبة الله. ولكن توجد كلمة مرتبطة بكلمة Ζωή زوي، وهي كلمة πνευματικός بنفماتيكوس، أي روحي، وتختص بالكلام عن المجال المرتبط بالحياة الآتية من عند الله. كلمة "بالروح" لا تعني المرتبط بالحياة العادية التي تنحصر في النفس والجسد، أي الحياة اليومية، حياة المعيشة. أما كلمة "ابسيكوس"، فهي تعني الحياة الإنسانية العادية، وتقال عن الجسد أحيانًا وعن النفس أحيانًا أخرى، لا فرق

بينها وبين βίος بايوس. الإنسان الذي أخذ Ζωή أي الحياة الأبدية، عندما يعيش على الأرض، يعيش الحياة التي تُسمى "بنفماتيكوس" "أحيا لا أنا بل المسيح يحيا Ζή فيَّ" (غلاطية ٢: ٢٠)، أي الحياة المسيحية. "ابسيكوس" والفرق بين الكلمتين واضح بشكل كبير جدًا عند بولس في (١ كور ١٥: ٤٥) "صَارَ آدَمُ، الإِنْسَانُ الأَوَّلُ، نَفْسًا حَيَّةً ψυχήν، وَآدَمُ الأَخِيرُ رُوحًا مُحْيِيًا πνεύμα ζωοποιούν".

حياة آدم الأول وحياة آدم الثاني:

فرقٌ كبير بين نفسٍ حيَّةٍ تحيا بقدراتها الذاتية وحيَّةً بنفسها، وبين "روحًا محييًا"، **والتي تعني أن كيانه يتعدى ذاته إلى الآخرين ليحييهم**. ليس في قدرة آدم الأول أن يُحيي الآخرين، إنما في قدرة آدم الأخير أن يعطي روحًا محييًا. "لكِنْ لَيْسَ الرُّوحَانِيُّ أولاً بَلِ الْحَيَوَانِيُّ (أي الذي يحيا الحياة العادية جدًا "βίος")، وَبَعْدَ ذلِكَ الرُّوحَانِيُّ" (١كور ١٥: ٤٦). هنا يركز القديس بولس على أن الحيواني يجيء أولاً، ومن ثمَّ الروحاني، بمعنى أن الحياة توجد على المستوى الحسي البسيط أولاً حتى يمكن أن تنتقل إلى المستوى الروحي، تمامًا مثل آدم الأول في المستوى الأول، والثاني على المستوى الروحي العالي عطية من الله. آدم الأول من الأرض ترابي، ولذلك من الضروري أن توجد في الحياة الترابية أولًا، ومن ثمَّ تنتقل إلى المستوى السماوي، إذا لم توجد ترابيًا لا توجد سمائيًا، ولذلك "ما يُعطى من الله يؤخذ في ذات الحالة التي عليها الإنسان"، وعلى ذلك، فإن قيمة محبة الله لنا تُقاس بأنه أدركنا في الوضع الذي كنّا نحيا فيه، ولم ينتظر أن نتطور لكي نصل إلى العطية. وهذه نقطة في منتهى الخطورة تميِّز المسيحية عن الإسلام.

حتمية الإيمان كخيار للحياة:

لما أعطى الله عطية للإنسان لم ينتظر حتى يُصلح حاله ويتوب، إنما أعطى له وهو مريض، متعَب لكي يصلحه هو. في إنجيل يوحنا، لكي أفهم الإفخارستيا والخبز النازل من السماء، يجب أن نفهم مرور شعب العهد القديم في تجربتين:

١- التجربة الأولى، وهي تجربة عبادة العجل الذهبي. هذا مستوى من الارتداد عن الله خطيرٌ جدًا، فبعد أن رأى الشعب الأهوال التي حلَّت بالمصريين؛ ضربة الأبكار وغرق جيش فرعون وعبور البحر الأحمر، كان من المفروض أن يقتني هذا الشعب إيمانًا خارقًا، لكن ما حدث هو أنهم طلبوا رؤية الله، طلبوا إلهًا يُرى، وبالتالي في غياب موسى طلبوا من هارون أن يصنع لهم تمثالا حتى يكون لنا آلهة تمشي أمامنا كباقي الشعوب الأخرى. وكثير من الآباء قالوا إن الاسرائيليين أخذوا هذا الأمر عن المصريين الذين علَّموهم أن الآلهة تتقدم مواكب الملك والانتصار، ولذلك بعد أن نجى الإسرائيليون، واستتب أمرهم، أرادوا أن تتقدمهم الآلهة، باعتبار أن موسى وهارون لم ينتصرا بقدرتهما وإنما الأمر مردود للآلهة.

٢- التجربة الثانية، هي تجربة الخبز. فقد تذمَّر الشعب على موسى، وطلبوا أن يعيشوا كما كانوا عند قدور اللحم والكراث والثوم والبصل، وليس في البرية كما انتهى بهم الحال. طبعًا، **التذمُّر** هنا ليس على موسى بل على الله، **وهو يعني عدم قبول الوضع الذي يتطلبه الإيمان، وهذه أخطر تجربة يواجهها الإنسان في حياته الروحية. أحيانًا يُفرَض على الإنسان وضع ثقيل يجب أن يقبله ويرضى به لكي يعيش**، لا تقل أنا كنت عايش ... لكن مفضِّلًا عار المسيح على كل خزائن وغنى مصر، مفضِّلًا أن يُذل مع شعب الله على أن يكون له

تمتع وقتي بالخطية، وهي مسألة ليست بسيطة. **قبول الوضع الذي يحتِّمه الإيمان، جزءٌ مهمٌ جدًا لنجاح الإيمان نفسه، وإلا الإنسان يفشل.** المشكلة هنا ليست فقط هي عدم توفر الإيمان، وإنما عدم الرضا بما يحتِّمه الإيمان أيضًا؛ أن أجوع في البرية طالما أنا مع الله، أقبل أن لا آكل نفس طعام مصر طالما أنني في النهاية سأنطلق لحرية مجد أولاد الله. كثير من الآباء المفسرين ربطوا بين تجارب بني إسرائيل في البرية وبين تجربة المسيح على الجبل، أولهم أوريجينوس وآخرهم يوحنا ذهبي الفم، الذي يقارن بين فشل آدم كمثال، وفشل بني إسرائيل كمثال صارخ، فقال إذا كان الإنسان يمكن أن يتعثر في فهم مثال آدم، شجرة وفردوس وحيَّة، كمثال غير واضح، فكيف تتعثر في البرية؟ الشعب الذي رأى يد الله العزيزة والقوية في منتهى الوضوح، كيف يتعثر فيها؟ التجربة أمامه واضحة، وبالرغم من ذلك يسقط فيها. يقول ذهبي الفم "يسير إلى الفخ وعينه مفتوحة لكي يسقط فيه!" شيء رهيب، لذلك الله لم يقبل -وهنا الأمر الخطير في الحدث- أن يدخل هذا الشعب أرض الموعد، ليس لأن الله مستبد، إنما إذا كنتُ أنا قد رفضت أن أعيش في ضيق الإيمان مع الله، ورفضت أن أعيش مع الله، فلو أخذت الحرية ولم يكن لديَّ إيمانٌ عميق من الداخل، ألا يعرضني ذلك للارتداد مرةً أخرى، وللتذمر لأن إيماني لم يتأصل؟ **الذي لا يقبل الله في الضيق لا يقبل الله في الحرية.** بولس البسيط في البستان قال: **الذي يهرب من الضيقة يهرب من الله**، يقولون إنه عاش ٦٤ سنة لم يقل غير هاتين الكلمتين. **إذا كان التذمُّر بسبب الإيمان، فإنه يصطدم مع الإيمان**، إنما إذا كان التذمر بسبب سوء الأحوال؛ من ظلمٍ واستبدادٍ، فمن الجائز أن يكون التذمُّر مطلوبًا، وإلا كيف نفهم أن الله يقول لموسى أنين شعبي وصل إلى أُذني؟ لا نستطيع أن نقول إن الأنين والألم الموجود في أرض مصر

بسبب استعباد المصريين كان نوعًا من عدم الإيمان، بالعكس، الله قَبِله وسَمِعه وجهَّز موسى لخلاص الشعب، **بمعنى نقبل ما يأتي علينا ونئن، لكن هذا الأنين لا يتحول إلى تذمر.**

الإفخارستيا؛ المنُّ الحقيقي:

لكي يعطينا المسيح تشبيهًا واضحًا جدًا على عمل الإفخارستيا في الإنسان، قال "كما أرسلني الآب وأنا حيٌّ بالآب، هكذا كل مَن يأكلني يحيا بي" (يو ٦: ٥٧). مصدر حياة الابن هو الآب، فهو حيٌّ بالآب. مصدر حياة الإنسان هو الابن، ولذلك يوجد هنا أكثر من نقطة تتداخل معًا؛

(١) إن مصدر الحياة هو الآب.

(٢) وقياسًا على علاقة الآب بالابن، نفهم علاقة المسيح بالمؤمنين.

(٣) لا يمكن أن أعيش مع المسيح وفي الآب، إلا إذا كنتُ ابنًا. هنا يتضمن الكلام عن الآب والابن كلامًا عن التبني بكل وضوح "مَن يأكلني يحيا بي"، أي يحيا بي كابنٍ، لأن عدد ٥٨: «ليس كما أكل آباؤكم المن في البرية وماتوا"، يعني أنهم لم يكن لديهم طاعة الأبناء، إنما تذمُّر العبيد، وهذا غير محبة الأولاد. **كذلك يجب أن ننتبه إلى أن طبيعة المن مختلفة، لأنه غير محيي إلى الأبد. ولذلك، فإن قبول العطية "الإفخارستيا" يعني أن يعيش الإنسان الحياة الأبدية.** وهذا واضح من كلام المسيح وكلام القديس يوحنا عن الحياة الأبدية التي كانت عند الآب وأُظهِرت لنا. عندما آخذ المسيح، أحيا إلى الأبد، وأحيا إلى الأبد على ذات القياس الأول، أي أن مصدر حياتي هو الابن، وإذا انفصلت عن هذا المصدر، أموت.

الاتحاد بالمسيح:

ما معنى اتحادنا بالمسيح؟ ما معنى الاتحاد مع المسيح في الإفخارستيا؟ ما الذي يحدث باشتراكنا في الإفخارستيا، ولماذا حتى بعد الإفخارستيا نفسها يكون لدينا ضعف روحي، ما الذي يمكن أن نفعله حتى يبقى هذا الاتحاد فعالً.

كثيرًا ما نتكلم عن المسيح الذي فينا، دون أن نتكلم عن نحن الذين في المسيح. لأننا نحن الذين في المسيح، تفُرض علينا Ζωή حياة أخرى مختلفة تمامًا عن الحياة اليومية التي نعيشها.

اتحادنا بالمسيح له أسباب وله أيضًا أهداف. أول سبب هو سقوط الطبيعة الإنسانية الذي أدَّى إلى أن يضع الله رأسًا ومصدرًا للحياة الأبدية غير الإنسان. فلأن السقوط كان هو محاولة الإنسان أن يحتوي الحياة في ذاته، ولكنه فشل، وبالتالي فَقَدَ الحياة. هنا يوجد تعبيران عند آباء الكنيسة، والتعبيران يستندان إلى الكتاب المقدس؛ إن الله أقام **رأسًا جديدًا** أو غرس **جذرًا جديدًا** للإنسانية وهو المسيح، وهذا تعبير متواتر عند الآباء كلهم، لا سيما كيرلس السكندري، أي جذرًا تنمو منه الإنسانية التي لا يغلبها الموت. **فلما نقل الله مصدر الحياة ووضعه في المسيح أعطى بذلك ضمانةً وثباتًا لهذه الحياة بشكل يفوق العقل.**

سفر الرؤيا من الكتب التي نادرًا ما تُقرأ في البيوت أو الاجتماعات، ولكنه كتاب من الكتب المهمة في العهد الجديد، لأنه مبدئيًا يشرح بعض الحقائق المهمة عن الحياة في الدهر الآتي.

في رؤيا إصحاح ٢٢[1] كلام جميل جدًا، لأنه يأتي بعد الكلام عن

(١) "وَأَرَانِي نَهْرًا صَافِيًا مِنْ مَاءِ حَيَاةٍ لاَمِعًا كَبَلُّورٍ، خَارِجًا مِنْ عَرْشِ اللهِ وَالْخَرُوفِ. فِي وَسَطِ سُوقِهَا وَعَلَى النَّهْرِ مِنْ هُنَا وَمِنْ هُنَاكَ، شَجَرَةُ حَيَاةٍ تَصْنَعُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ

نبوة الحياة الآتية في إصحاح ٢١[٢]. أهم ما يمكن أن نلاحظه في سفر الرؤيا هو أن أورشليم الجديدة تمتاز بأن ليس فيها هيكل على الإطلاق، لأن الله سيسكن مع الناس وتكون المدينة كلها هي الهيكل، وليس عدم وجود الهيكل فقط، وإنما يجب أن ننتبه إلى أن هناك أيضًا: «نهر صافي من ماء الحياة لامعًا كبلور خارجًا من عرش الله"،

ثَمَرَةً، وَتُعْطِي كُلَّ شَهْرٍ ثَمَرَهَا، وَوَرَقُ الشَّجَرَةِ لِشِفَاءِ الأُمَمِ. وَلاَ تَكُونُ لَعْنَةٌ مَا فِي مَا بَعْدُ. وَعَرْشُ اللهِ وَالْخَرُوفِ يَكُونُ فِيهَا، وَعَبِيدُهُ يَخْدِمُونَهُ. وَهُمْ سَيَنْظُرُونَ وَجْهَهُ، وَاسْمُهُ عَلَى جِبَاهِهِمْ. وَلاَ يَكُونُ لَيْلٌ هُنَاكَ، وَلاَ يَحْتَاجُونَ إِلَى سِرَاجٍ أَوْ نُورِ شَمْسٍ، لأَنَّ الرَّبَّ الإِلهَ يُنِيرُ عَلَيْهِمْ، وَهُمْ سَيَمْلِكُونَ إِلَى أَبَدِ الآبِدِينَ.... وَقَالَ لِي: «لاَ تَخْتِمْ عَلَى أَقْوَالِ نُبُوَّةِ هذَا الْكِتَابِ، لأَنَّ الْوَقْتَ قَرِيبٌ.... أَنَا الأَلِفُ وَالْيَاءُ، الْبِدَايَةُ وَالنِّهَايَةُ، الأَوَّلُ وَالآخِرُ». طُوبَى لِلَّذِينَ يَصْنَعُونَ وَصَايَاهُ لِكَيْ يَكُونَ سُلْطَانُهُمْ عَلَى شَجَرَةِ الْحَيَاةِ، وَيَدْخُلُوا مِنَ الأَبْوَابِ إِلَى الْمَدِينَةِ، ... «أَنَا يَسُوعُ، أَرْسَلْتُ مَلاَكِي لأَشْهَدَ لَكُمْ بِهذِهِ الأُمُورِ عَنِ الْكَنَائِسِ. أَنَا أَصْلُ وَذُرِّيَّةُ دَاوُدَ. كَوْكَبُ الصُّبْحِ الْمُنِيرُ». وَالرُّوحُ وَالْعَرُوسُ يَقُولاَنِ: «تَعَالَ!». وَمَنْ يَسْمَعْ فَلْيَقُلْ: «تَعَالَ!». وَمَنْ يَعْطَشْ فَلْيَأْتِ. وَمَنْ يُرِدْ فَلْيَأْخُذْ مَاءَ حَيَاةٍ مَجَّانًا" (رؤ 22).

(٢) "ثُمَّ رَأَيْتُ سَمَاءً جَدِيدَةً وَأَرْضًا جَدِيدَةً، لأَنَّ السَّمَاءَ الأُولَى وَالأَرْضَ الأُولَى مَضَتَا، وَالْبَحْرُ لاَ يُوجَدُ فِي مَا بَعْدُ. وَأَنَا يُوحَنَّا رَأَيْتُ الْمَدِينَةَ الْمُقَدَّسَةَ أُورُشَلِيمَ الْجَدِيدَةَ نَازِلَةً مِنَ السَّمَاءِ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُهَيَّأَةً كَعَرُوسٍ مُزَيَّنَةٍ لِرَجُلِهَا. وَسَمِعْتُ صَوْتًا عَظِيمًا مِنَ السَّمَاءِ قَائِلًا: «هُوَذَا مَسْكَنُ اللهِ مَعَ النَّاسِ، وَهُوَ سَيَسْكُنُ مَعَهُمْ، وَهُمْ يَكُونُونَ لَهُ شَعْبًا، وَاللهُ نَفْسُهُ يَكُونُ مَعَهُمْ إِلهًا لَهُمْ. وَسَيَمْسَحُ اللهُ كُلَّ دَمْعَةٍ مِنْ عُيُونِهِمْ، وَالْمَوْتُ لاَ يَكُونُ فِي مَا بَعْدُ، وَلاَ يَكُونُ حُزْنٌ وَلاَ صُرَاخٌ وَلاَ وَجَعٌ فِي مَا بَعْدُ، لأَنَّ الأُمُورَ الأُولَى قَدْ مَضَتْ». وَقَالَ الْجَالِسُ عَلَى الْعَرْشِ: «هَا أَنَا أَصْنَعُ كُلَّ شَيْءٍ جَدِيدًا!». وَقَالَ لِي: «اكْتُبْ: فَإِنَّ هذِهِ الأَقْوَالَ صَادِقَةٌ وَأَمِينَةٌ». ثُمَّ قَالَ لِي: «قَدْ تَمَّ! أَنَا هُوَ الأَلِفُ وَالْيَاءُ، الْبِدَايَةُ وَالنِّهَايَةُ. أَنَا أُعْطِي الْعَطْشَانَ مِنْ يَنْبُوعِ مَاءِ الْحَيَاةِ مَجَّانًا. مَنْ يَغْلِبْ يَرِثْ كُلَّ شَيْءٍ، وَأَكُونُ لَهُ إِلهًا وَهُوَ يَكُونُ لِي ابْنًا ... ثُمَّ جَاءَ إِلَيَّ وَاحِدٌ مِنَ السَّبْعَةِ الْمَلاَئِكَةِ الَّذِينَ مَعَهُمُ السَّبْعَةُ الْجَامَاتِ الْمَمْلُوَّةِ مِنَ السَّبْعِ الضَّرَبَاتِ الأَخِيرَةِ، وَتَكَلَّمَ مَعِي قَائِلًا: «هَلُمَّ فَأُرِيَكَ الْعَرُوسَ امْرَأَةَ الْخَرُوفِ». وَذَهَبَ بِي بِالرُّوحِ إِلَى جَبَلٍ عَظِيمٍ عَالٍ، وَأَرَانِي الْمَدِينَةَ الْعَظِيمَةَ أُورُشَلِيمَ الْمُقَدَّسَةَ نَازِلَةً مِنَ السَّمَاءِ مِنْ عِنْدِ اللهِ، ... وَلَمْ أَرَ فِيهَا هَيْكَلًا، لأَنَّ الرَّبَّ اللهَ الْقَادِرَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، هُوَ وَالْخَرُوفُ هَيْكَلُهَا. وَالْمَدِينَةُ لاَ تَحْتَاجُ إِلَى الشَّمْسِ وَلاَ إِلَى الْقَمَرِ لِيُضِيئَا فِيهَا، لأَنَّ مَجْدَ اللهِ قَدْ أَنَارَهَا، وَالْخَرُوفُ سِرَاجُهَا".(رؤ 21).

وبجانب النهر شجرة الحياة. وقبل ذلك يقول «أَنَا أُعْطِي الْعَطْشَانَ مِنْ يَنْبُوعِ مَاءِ الْحَيَاةِ مَجَّانًا".

إذن، يشتمل هذان الإصحاحان على بعض النقاط المهمة:

١- عدم وجود هيكل لأن الله سيسكن مع شعبه.

٢- كل شيء يصدر من العرش الإلهي؛ ماء الحياة نابع من العرش، النور نابع من العرش. ويجب أن نلاحظ أن عرش الله هذا لا يسمى بعرش الله فقط، وإنما هو عرش الله والحمل أو الخروف. وبالتالي الكلام هنا عن الملكوت. كلمة عرش = كلمة ملكوت، وقد صادفنا كلمة عرش أو كرسي قبل هذا في إنجيل متى: "السموات هي كرسي الله والأرض موطئ قدميه"، فهنا كل شيء في الدهر الآتي سينبع من الملكوت. ولذلك نجد هنا صورة شعرية جميلة «أن كل ما يخرج من الملكوت / العرش سيُصب في الناس"، وهذا هو الاشتراك الحقيقي في الملكوت، أي أن نشرب من نهر ماء الحياة النابع من عرش الله. وواضح هنا أن سلطان الله على الحياة هو الذي يجعل هذه العطية، أي عطية الحياة هي عطية إلهية.

٣- "أَنَا أُعْطِي الْعَطْشَانَ مِنْ يَنْبُوعِ مَاءِ الْحَيَاةِ مَجَّانًا"، والعطش هنا تعبير عن احتياج الإنسان. نحن في الدهر الآتي سنحتاج إلى المسيح، إلى ماء الحياة، وسنظل دائمًا في عطشٍ إلى الله. لكن هذا العطش ليس مثل العطش على الأرض، وإنما يختلف عنه في أكثر من نقطة؛

(١) الله سيسكن مع الناس، هم يكونون له شعبًا، والله نفسه يكون لهم إلهًا، ما يعني أنه ليس عطشًا ناتجًا عن الفُرقة أو البُعد أو عدم رؤية الله، وإنما العكس هو الصحيح. لأننا سوف نرى الله

(رؤ ٢٢: ٤) "وَهُمْ سَيَنْظُرُونَ وَجْهَهُ، وَاسْمُهُ عَلَى جِبَاهِهِمْ"، والاسم الذي على الجبهة في العهد القديم هو علامة المُلك[٣]، ولذلك من يرى الله يعطش إليه كثيرًا. وهو أمر مختلف عن حالة الشبع الجسدي، كلما رأينا الله ستظل حاجتنا إلى الله دائمة، لن نشبع، بل كلما أخذنا سنظل نشعر باحتياج شديد إلى الله. الجمال العظيم الذي سنتمتع به سيجعلنا نشتاق أكثر فأكثر إلى الله. وهو ما يصنع الفرق بين العطش على الأرض والعطش في الحياة الأبدية؛ «وَفِي الْيَوْمِ الأَخِيرِ الْعَظِيمِ مِنَ الْعِيدِ وَقَفَ يَسُوعُ وَنَادَى قَائِلًا: "إِنْ عَطِشَ أَحَدٌ فَلْيُقْبِلْ إِلَيَّ وَيَشْرَبْ. مَنْ آمَنَ بِي، كَمَا قَالَ الْكِتَابُ، تَجْرِي مِنْ بَطْنِهِ أَنْهَارُ مَاءٍ حَيٍّ". قَالَ هذَا عَنِ الرُّوحِ الَّذِي كَانَ الْمُؤْمِنُونَ بِهِ مُزْمِعِينَ أَنْ يَقْبَلُوهُ" (يو ٦: ٣٧ - ٣٩).

(٢) واضح هنا أن ماء الحياة الذي ينبع في الإنسان هو الروح القدس، فالنهر الذي في وسط المدينة هو الروح القدس، النهر البلور المنبثق من عرش الآب، الروح النابع الخارج من عرش الله، ولذلك يقول الآباء إن انسكاب النعمة في داخل الإنسان، هي رؤية الله. الشيء المهم في الحياة الروحية، هو أن ما يراه الإنسان يتحول فيه إلى أشواق شديدة جدًا في الداخل، الرؤيا تزيد المحبة اشتعالًا، والمحبة تُزيد في قلب الإنسان طلب الرؤية أكثر فأكثر بحسب تعبير مار يعقوب السروجي: "يرى فيُحب، يُحب فيشتاق إلى الرؤية"، ولذلك نحن سنشرب وستنبع فينا مياه حياة أبدية. ولكن في الكلام عن

(٣) كان على الشخص الذي يريد أن يثبت ملكيته للخروف أو للقطيع، أن يضع علامة معينة على الخروف أو على كل أفراد القطيع بالحديد المحمى بالنار، وهذه العلامة كانت هي علامة الملكية. وهي ذات فكرة المسح بالميرون المقدس، حيث يتم تخصيص الشخص الممسوح لله. وفي سفر الرؤيا نجد أن حتى الذين يتبعون التنين لهم علامة على الجبهة. إذن، ختم الميرون أو علامة الميرون التي أخذناها على الجبهة وعلى أعضاء الجسم المختلفة، هي العلامة التي سنُعرَف بها عند السمائيين، والتي نؤهَّل بها للدخول إلى مدينة الملك العظيم، أورشليم السمائية.

أورشليم السماوية؛ الروح القدس والعروس أي الكنيسة، يقولان تعال. بعض المفسرين قالوا إن العروس المقصودة هنا هي المسيح، لأن أحدًا لا يستطيع أن يقدم الماء إلا المسيح. البعض الآخر يرى أن العروس هي الكنيسة لأن "من يسمع فليقل تعال" على أساس أن الدعوة هنا موجَّهة من الكنيسة لدعوة الناس للحياة الأبدية.

الله هو نفسه العطية المجانية:

"وَمَنْ يَعْطَشْ فَلْيَأْتِ. وَمَنْ يُرِدْ فَلْيَأْخُذْ مَاءَ حَيَاةٍ مَجَّانًا". عطية الماء هي عطية مجانية، وقد فسر كثيرون كلمة "مجانًا" على اعتبار أن المياه في الطبيعة ليست ملكًا لفردٍ معين، النهر لا يملكه أحد، تستطيع أن تشرب منه دون أن يمنعك أحد. ولذلك تتضمن كلمة "مجانًا" عدة أمور في الكلام عن العطية؛ أولًا هي ملك الله، وهذا صحيح لأنه هو الخالق، هو الذي يعطي، لكن هذا لا يلغي حرية الإنسان؛ من يريد الشرب فليشرب، لا حجر على النعمة المجانية، لأن النعمة أصلًا هي الله، **وكلمة "مجانًا" هنا لها قيمتها العقائدية الخطيرة جدًا. لماذا العطية مجانية ولا مقابل لها؟ لأنها هي الله، فكيف يمكنك أن تُبادل الله بشيء أيًّا كان هذا الشيء؟** الأمر مختلف هنا عن المقايضة. النعمة مجانية لأنك لا تستطيع أن تقايض الله بأي شيء في الخليقة. ماذا تستطيع أن تقدم لله؟ سليمان بعدما بنى الهيكل المصنوع من تراب الأرض وأحجارها قال له: مِن يدك أعطيناك، وهكذا نعطي الله الخليقة كتقدمة شكر وتسبيح. ولذلك عندما تأخذ من الماء الذي ينبع من عرش الله لا تستطيع أن تبادل الله ما أخذته من نعمة.

والكلام عن أنه لا يوجد هيكل "وَلَمْ أَرَ فِيهَا هَيْكَلًا"، يعنى أنه لم يعد هناك شيءٌ يمنع الإنسان من رؤية الله. رغم أننا في العهد

الجديد، وأننا في الكنيسة ندخل السماء، إلا أنه لا تزال هناك ستارة على باب الهيكل، تُفتح أو تُرفع، وكتب الطقس القديمة تقول إن الكاهن يفتح الستارة، وتُسمى الحجاب أو الستر، لأن الإنسان لم ينمو وعيه وفكره الروحي بعد إلى الدرجة التي يكون معها حيًّا في السماء بشكل مستمر.

إذن، العطية مجانية لأن العطية هي الله. النعمة هي الملكوت ويجب أن يكون هذا الأمر موضع اهتمام حياتنا الروحية لأننا في علاقتنا مع الله لا نبادل شيئًا بشيء، نأخذ مجانًا لأننا نأخذ الله نفسه، وعندما نأخذ الله نفسه يجب أن يكون التسبيح من كل القلب، ولذلك عندما سُئِل المسيح عن أعظم الوصايا قال: أحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل فكرك وقريبك كنفسك لأن هذا هو الناموس كله والأنبياء".

المحبة وأثرها على نظرتنا للّه:

غاية المحبة أن نأخذ الله، وأن نعيش في الله، ولذلك فإن صورة ماء الحياة يجب أن تحسِّن نظرتنا لله، وتجعلنا نقبل هذه النعمة المجانية بتسبيحٍ وشكر. نقبلها لأنها قد وُهِبت لنا مجانًا، ونشكر عليها لأنها ستنبع في داخلنا إلى ماء حياة، ولذلك يجب أن تكون أشواقنا موجهة لأورشليم السماوية النازلة من عند الله. هي "ليست مصنوعة بيد"، أي لا تنتمي لهذه الخليقة، لذلك "السماء الأولى والأرض الأولى قد مضتا"، لم يعودا بعد من الخليقة المصنوعة من العدم، ولذلك، فإن أورشليم الجديدة -والكلام هنا لأكثر من واحد من آباء الكنيسة- ليست قيد البناء بعد، وإنما هي نازلة من عند الله، أي موجودة: "هُوَذَا مَسْكَنُ اللهِ مَعَ النَّاسِ"، وما يؤيد هذا، ما تفوه به استفانوس في أعمال ٧: ٨ عن أن الله لا يسكن في مصنوعات

بالأيادي، كذلك فإن ما ذكره معلمنا بولس الرسول في العبرانيين عن «الْمَسْكَنِ الأَعْظَمِ وَالأَكْمَلِ، غَيْرِ الْمَصْنُوعِ بِيَدٍ، أَيِ الَّذِي لَيْسَ مِنْ هذِهِ الْخَلِيقَةِ» (عب ٩: ١١)، يبدو أكثر وضوحًا بشكل كبير جدًا في الرؤيا، لأن المسكن الثاني الذي سنسكنه ليس مصنوعًا بيد، أي ليس من هذه الخليقة. لذلك يجب أن نفهم معنى الكلمات الشعرية الموجودة في الرؤيا. **ما يريد الرسول أن يقوله هو أن سكنى الله مع القديسين هي حضور الله الكامل في المؤمنين، وهذا هو ما يجعل الله يُشبِع ويُسكَن ويُرى، وكلها أوصاف متعددة لحقيقة واحدة وهي أنه لن يكون بين الله والإنسان حجاب.**

وإذا كانت السماء هي كرسي الله والأرض موطئ قدميه، أي المكان الذي يستقر عليه عرش الله أو العرش السماوي، فليس هناك فرقٌ بين هذه الصورة، وصورة السماء الجديدة والأرض الجديدة، التي هي أورشليم السمائية، **وإنما المعنى الذي يجب أن نلتفت إليه هو أننا لن نقف على خليقة مصنوعة من العدم، وإنما سنعيش مع الله، ومكان استقرارنا مع الله هو المكان الذي يستقر فيه المُلك الإلهي** "أنا هو الألف والياء البداية والنهاية"، الأمر الذي يعني أن الإنسان سوف يدرك أنه سيعيش في الخليقة التي لا تنتمي للعدم، وإنما العطية أو الهبة المجانية التي ستؤخذ من الله مباشرةً.

كل هذه الصور والرموز الخاصة بالحياة، التي في وسطها النهر، والهيكل الجديد الذي هو أورشليم، كل هذا خارج من عرش الله، نابع من عرش الله، يسقى السماء الجديدة والأرض الجديدة وفي رؤية مباشرة لله، لذلك نحن سنعيش في هذه الحياة الغير العادية التي سوف تمكننا من أن نرى الله وجهًا لوجه.

شكل جسد الدهر الآتي:

سُئل أحد الآباء مرة عما إذا كان الإنسان سيقوم في الدهر الآتي برجلين لكي يقف عليهما، فقال إن القدمين في الكتاب المقدس يشيران إلى الإرادة، والإنسان صاحب الإرادة الثابتة في الله، لا يحتاج إلى مكان لكي يقف عليه، لأنه سيقف على المحبة، والمحبة هي التي تحفظه في حضور الله. الوقوف يعني الثبات. الإرادة الإنسانية تحفظ الإنسان في المحبة وتعطي الإنسان أن يحب إلى الدرجة التي تبقيه المحبة في حضرة الله دون أن يحتاج لقدمين ماديتين، وإنما الذي يعلقه ويحفظه هو المحبة، الأمر الذي يعني أن أعضاء الجسد المخلوق من العدم ليست هي وسيلة الحياة مع الله أو في الله.

أسوأ الأشياء هي التي يمكن أن نتعلمها من الجسد. الجسد محدود، له طول وعرض وما إليه. النفس غير محدودة بالأبعاد، وإنما محدودة بالقدرة والمعرفة، وبالرغم من أنها أصلًا مخلوقة، لكن لا يجب أن نتعامل مع النفس كما نتعامل مع الجسد على أنها محدودة. المسافات عند النفس = صفر، والبُعد عند النفس = صفر، وإنما ما يجعل النفس محدودة هو ضعف الإرادة وعجزها، هو احتياجها الدائم لله، ولذلك وجود الإنسان في أورشليم السماوية ليس وجودًا جسدانيًا يُقاس بالطول والعرض، وإنما وجودٌ في حدود إمكانيات النفس؛ المعرفة التي تحتاج دائمًا للمزيد، والإرادة التي تحتاج إلى أن تثبت في الله، الأدراك الذي يحتاج للرؤيا. كل هذه صفات النفس، ولذلك نحن الموجودون في أورشليم السمائية لا نحتاج إلى الوقوف على رجلين أو يدين أو أرض، إنما نحتاج إلى أن نثبت، حيث لا مسافة، إنما حيث اهتمام ومحبة، فإدراك وثبات الإرادة في الله.

المسيح إلهنا يعطينا عفةً لكي يكون لنا مكان في المدينة السماوية

أورشليم، لكي نشرب من ماء الحياة، وتكون معرفتنا يقينية، مشاهدة، أو حسب تعبير الأنبا غريغوريوس[٤]، مكاشفة، نستطيع أن نرى ونتمتع.

المسيح إلهنا يثبتنا فيه، ويحفظنا لنشتاق لماء الحياة الأبدية، ونشعر دائمًا بعدم كفاية ما فينا، لأننا مهما أخذنا سيصبح أمامنا الكثير، والكثير هو عمل الله الفائق الذي يهبنا إياه مِن عنده له كل مجد وكرامة من الآن وإلى الأبد آمين.

(٤) المتنيح

الفصل الثاني

اتحادنا بالمسيح في الإفخارستيا
معطلاته ووسائله[1]

(١) تفريغ وإعادة صياغة لمحاضرة بعنوان «المسيح ماء الحياة» ألقاها الدكتور جورج حبيب بباوي في مؤتمر أسرة القديس كيرلس عمود الدين الإكليريكية المنعقد بالإسكندرية في الفترة من ٣ إلى ٧ يوليو ١٩٨١.

تمهيد

قلنا في مناسبةٍ أخرى إن هناك أسبابًا أدت إلى أن يصبح المسيح هو الوسيط بيننا وبين الله. وكانت النقطة التي تكلمنا فيها هي أن المسيح هو أصل، أو جذر الطبيعة الإنسانية الجديد الذي منه ينمو الجنس البشري الجديد. لأن الرأس والأصل الأول، آدم، كان ضعيفًا جدًا، وكان آدم مجرد نفسٍ حيةٍ. ولذلك، جعل الله -من فرط محبته للإنسان- المسيحَ آدم الأخير أو آدم الثاني روحًا مُحييًا. وهنا يتبدى جمال العهد الجديد في ضمان حفظ الحياة الإنسانية الجديدة في آدم الثاني؛ أقنوم الابن المتجسد، والذي هو ليس ناسوتًا فقط كآدم الأول، بل لاهوت متَّحد بالناسوت. وهو الأمر الذي لا يسمح لنا بأي مقارنة بين الوضعين، إلا من حيث النتائج التي أوصلنا إليها آدم الثاني.

وأول هذه النتائج هي أن المسيح استطاع بسبب طاعته الفائقة للآب أن يضمن لنا حياةً أبديةً، فمجرد الانتماء للطبيعة الإنسانية يُصبح دعوةً موجَّهة للإنسان لكي يُقبل في يسوع المسيح. وثانيًا: أن المسيح ضمن لنا أيضًا عدم تكرار ما حدث في الخليقة الأولى في الخليقة الثانية؛ أي سقوط الإنسان وفقدان الحياة. ففي العهد الجديد ما لم يرتد الإنسان عن الإيمان ويترك المسيح تمامًا، فحياتُه محفوظةٌ مهما كانت السقطات، ومهما كانت الضعفات. ذلك، لأن النعمة دائمًا معطاه، وحيثما كثرت الخطية ازدادت النعمة جدًا. لكن يجب أن ننتبه إلى أن هذا ليس تصريحًا بالتهاون بسبب ثبات النعمة. مثلما يقول الرسول بولس "أَنَبْقَى فِي الْخَطِيَّةِ لِكَيْ تَكْثُرَ النِّعْمَةُ؟ حَاشَا! نَحْنُ الَّذِينَ مُتْنَا عَنِ الْخَطِيَّةِ، كَيْفَ نَعِيشُ بَعْدُ فِيهَا؟ أَمْ تَجْهَلُونَ أَنَّنَا كُلَّ مَنِ اعْتَمَدَ لِيَسُوعَ الْمَسِيحِ اعْتَمَدْنَا لِمَوْتِهِ، فَدُفِنَّا

مَعَهُ بِالْمَعْمُودِيَّةِ لِلْمَوْتِ، حَتَّى كَمَا أُقِيمَ الْمَسِيحُ مِنَ الأَمْوَاتِ، بِمَجْدِ الآبِ، هكَذَا نَسْلُكُ نَحْنُ أَيْضًا فِي جِدَّةِ الْحَيَاةِ؟" (رو ٦: ١ - ٥). إذن، لا نستطيع أن نعيش في الخطية. هذه النقطة توصلنا للنقطة الأساسية، وهي نقطة الاتحاد.

معطلات أو موانع الاتحاد بالمسيح

الحقيقة أن هناك معطلات وموانع للاتحاد، لا يمكن للاتحاد أن يتم في وجودها. وقد نستغرب إذا عرفنا أن هذه الموانع التي تعطلنا عن الاتحاد، ليست هي الخطية على الإطلاق. وإنما ربما أكثر ما يعطل اتحادنا بالمسيح هو محاولة إخضاع المسيح للحواس. ذلك، لأن جهازنا العصبي المسئول عن الإحساس لدينا ليس مصممًا لكي يحس أو يشعر باللاهوت، بالطريقة التي يتعامل بها مع الطبيعة المخلوقة، ولذلك لا يستطيع أن يستقبل الأمور الإلهية. لأن اللاهوت لا يندرج تحت الأمور المحسوسة، وهذه عقبة أساسية أمام الكثيرين الذين يريدون أن يحسوا ويشعروا في داخلهم بالأمور الإلهية عن طريق الانفعال أو التصوُّر، أو عن طريق إخضاع عمل الله في النفس للمقاييس الحسية.

هذا الأمر كان سببًا أساسيًّا لظهور بعض الهرطقات في التاريخ. أعطيكم مثالًا يهمنا كثيرًا جدًا؛ في الكلام عن الاتجاهات اللاهوتية عند الآباء. كان أبوليناريوس أسقف اللاذقية في القرن الرابع على درجة عالية من العلم والمعرفة، وكان صديقًا شخصيًا للبابا أثناسيوس الرسولي. وكان مدافعًا شديدًا عن الإيمان ضد الآريوسية، لكنه اكتسب شهرته في اللاهوت عندما قال إن الرب يسوع له المجد، لما تجسَّد لم يكن لديه نفسٌ إنسانيةٌ. ومثله مثل بعض الهراطقة، كان يقول هذا الكلام بحُسن نية في البداية، لأن هذا الكلام جاء ردًا على الأريوسيين الذين قالوا إذا كانت الأناجيل تقول عن الرب يسوع إنه يملك عقلًا

إنسانيًا وذو نفسٍ إنسانيةٍ، وأن لديه انفعالات بشرية، فالمسيحُ إذن عُرضةٌ للتغيير الأخلاقي، وبالتالي لا يمكن أن يكون إلهًا، لأن الانفعالات لا تتفق مع طبيعة اللاهوت. إضافةً إلى أن لديه نوعًا من الجهل بالمستقبل، ومعرفته محدودة. ومِن هنا تصوَّروا أنهم أثبتوا أن المسيح ليس إلهًا. فجاء أبوليناريوس واختصر المسافة، قائلًا إن المسيح هو نتاج لاهوت اتحد بالجسد، وهذا الجسد ليس له عقل إنساني ولا نفس إنسانية. لماذا؟ لأنه اعتبر أن وجود العقل والنفس سيعيق اتحاد اللاهوت والناسوت. وفي ذلك كان أبوليناريوس صادقًا مع نفسه، وليس صادقًا مع الإيمان. صادقٌ مع نفسه لأنه قال إذا كان هناك اتحادٌ، فلن يكن اتحادًا كاملًا بين اللاهوت والناسوت في المسيح، طالما كان هناك عقل وإرادة إنسانية تعطِّل هذا الاتحاد. وإذا كان لدى المسيح عقل إنساني فهذا معناه أن عمل اللوغوس سيكون محدودًا. ولذلك اضطر الآباء للرد على أبوليناريوس، ومن ضمن هذه الردود كتابٌ مهم لأثناسيوس في الرد على أبوليناريوس[٥].

كيف تعطَّلُ النَّفسُ والإرادة الاتحاد في المسيح؟

يهمنا أن نصل إلى النقطة الأساسية في الموضوع، وهي كيف تعطل النفس والإرادة الاتحاد في المسيح؟ يقول القديس غريغوريوس النزينزي إن أبوليناريوس ذهب إلى ما ذهب إليه لأنه يتصوَّر أن اللاهوت عبارة عن جسم كبير الحجم، وأن النفس ذات حجم أصغر، وإلى جوار النفس يجيء الجسد وهو أصغر من النفس. كأن لدينا ثلاثة مكعبات، فإذا قمنا بوضع المكعبات الثلاثة جنبًا إلى جنب، أو فوق بعضهم أو داخل بعضهم البعض، فسنفتقد إلى التناسق. وأكمل

(٥) راجع ترجمتنا لهذا الكتاب، ضد أبوليناريوس، جذور للترجمة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٦.

قائلًا، لكن اتحاد اللاهوت بالناسوت طبعًا -وهذه هي النقطة المهمة- ليس اتحادًا بين أجسام يضطرنا إلى أن نتصور كيف يتصل هذا بذاك، وكيف يلتحمان معًا.

أوطاخي كان لديه تصوُّرٌ آخر في هذه المسألة، وهو أن الناسوت ذاب في داخل اللاهوت وانتهى الأمر. من هنا نستنتج أنه ليس لدينا صورةً عقليةً عن كيفية الاتحاد، وأن محاولة البحث عن صورة عقلية عن كيفية الاتحاد وإخضاع هذا الاتحاد للإحساس وللجهاز العصبي والمخيلة هو أكبر عقبة تعطِّل الإنسان عن التمتع بعمل الله.

العقبة الثانية؛ أن حياة الخطية غرست فينا أو جعلتنا نعتاد على أن الأمور المهمة في حياتنا يجب أن تصحبها انفعالات حادة وعنيفة، أو حتى انفعال يزلزل كيان الإنسان. فإذا اشتركنا في صلوات الكنيسة، دون أن تحدث لنا هذه الانفعالات، نشعر بفراغ، خصوصًا وإن كنا نبحث من البداية عن صورة عقلية عن كيفية الاتحاد بالمسيح. فإذا اعتقدنا بضرورة حدوث هذه الانفعالات، نصل في النهاية إلى نتائج في منتهى الخطورة، لدرجة أن عقلنا يترجم أحيانًا عدم وجود هذه الانفعالات بأنها نتيجة تباعُد الله عنا وبالتالي انعدام الاتحاد، خصوصًا إذا كانت هناك بعض المشاكل الروحية، كأن نصلي ونحن في حالة تشتت مثلًا. في هذه الحالة يشعر الواحد منا أنه دخل الكنيسة فارغًا وخرج فارغًا، لعدم وجود الانفعالات أو لأنه لم يستطِع التركيز في الصلاة، أو الشعور بالفراغ بالرغم من تناول جسد الرب ودمه. هذا الأمر في منتهى الخطورة، لماذا؟ لأنه إذا كانت علاقتي بالمسيح تعتمد على كم أو نوع الانفعالات الموجودة لديَّ، فهذا يعني أنه إذا وُجِدت الانفعالات وُجِد الاتحاد، وإذا لم توجد الانفعالات لا يوجد الاتحاد، والنتيجة طبعًا سيئة للغاية. يعبِّر عن ذلك يوحنا كاسيان بقوله: الراهب الذي يصلي عندما

يريد أن يصلي لن يصلي أبدًا. بمعنى أن الإنسان لن يصلي إلا في الوقت الذي يكون فيه مشحونًا بالانفعالات، فلن يصلي أبدًا. لأن حالة الشحن هذه قد تحدث وقد لا تحدث أبدًا، وعندئذٍ لن يصلي على الإطلاق. كما أن هذا النوع من الصلاة التي تعتمد على الشحن العاطفي تنطفئ سريعًا كما تجيء سريعًا، ويسميها مار اسحق السرياني بيقطينة يونان التي بنت ليلةٍ كانت وبنت ليلةٍ أُخذت.

المنهج الأرثوذكسي للاتحاد

إذن، ما هو المنهج الأرثوذكسي السليم اللازم اتباعه في علاقتنا بالمسيح؟

أول كل شيء يجب أن نعرف أنه لا يوجد سوى طريق واحد للاتحاد، وهو المحبة، ولذلك يجب أن نعرِّف المحبة تعريفًا جيدًا. صحيح أن المحبة ترافقها المشاعر الملتهبة أحيانًا، إنما ذلك ليس دليلًا على المحبة الصادقة. صحيح أن الله يسمح لنا كثيرًا بأن نتمتع به، إنما صحيحٌ أيضًا -كما يقول أحد الشيوخ- إذا أحببت، فالمحبة تختصر كافة السبل والمسافات والأفكار والمشاعر.

الإفخارستيا أولًا هي محبة، واستحقاقنا للإفخارستيا هو على قدر محبتنا، وعلى قدر تطهير الروح القدس لنا. الاستحقاق ليس على قدر استعداد الإنسان، إنما على قدر الإيمان والمحبة. والاستحقاق يزرعه الروح القدس في قلب الإنسان عندما يعلِّمه أن هذا هو جسد المسيح ودمه المحيي. ولذلك يجب أن ننتبه إلى أن الاستحقاق لا يعني الاهتمام بالأمور المظهرية من استحمام وارتداء ملابس نظيفة، وغير ذلك من أمور، وإن كانت هذه الأفكار، أفكارًا جيدة ومطلوبة، لكنها ليست هي التي تحقق الهدف النهائي، لأن المطلوب

هو أن يستعد العقل أولًا بالكلمة الإلهية، ولذلك، في كل كتابات الآباء، يبدأ الاستعداد للتناول من العشية، أي أن يجتمع الشعب ليسمع الكلمة والعظة في العشية ويصلي صلاة نصف الليل وباكر ومن ثمَّ يدخل للقداس بعد ذلك. أي أن الاستعداد يبدأ منذ الليل. يقول مار يوحنا سابا إذا كنت تحب إنسانًا وتشتاق إلى رؤياه، فإما أن تذهب إليه وتحادثه في بعض المسائل الهامة، وإما أن تكتفي برؤياه، وكلمة الإنجيل هي التي تخلق هذا الحوار، إن لم يتعلق بما فينا من جراحات، أي مشاكلنا الشخصية، أي أننا نتكلم مع المسيح ونعرض عليه حالتنا السيئة. ولذلك يقول أنت تحب الطبيب إذا شفى جراحاتك، إذن فلتبدأ محبتك للمسيح من حيث شفى جرحًا معيَّنًا فيك، بما يعني أننا نستطيع أن نبني محبتنا للمسيح على شفائه لنا من ألمٍ ما. قد لا يكون فيك موضع مؤلم، فإن لم يكن فيك موضع مؤلم فابحث عما تجده في قلبك ويدعوك إلى أن تفرح بالأمور السماوية، وهي ما يسميها مار اسحق زيارات النعمة، الفرح المجيد الذي لا يُنطَق به. إذا لم يكن هناك ما يدعوك للفرح، فلتكن الأحزان مقدمة للاتحاد، ونقصد بالأحزان، الشعور بالخسارة، الشعور بالذنب، الشعور بالتعب ..إلخ. يجب أن ينطلق الاتحاد من الحالة التي عليها الإنسان، لا تستجلب شيئًا من خارجك، بل في الوضع الذي أنت عليه، فحيثما أنت، يوجَد الرب، ويوجد على قدر احتياجاتك، بل وعلى أكثر مما تحتاج أيضًا. يقول إن صاحب القلب الحر، أي حرية المحبة ومحبة الحرية أيضًا، صاحب هذا القلب الحر حتى وإن كان حزينًا جدًا ومصابًا بآلام كثيرة، عندما يدخل في حوار مع المسيح، يجد أنه لا يريد أن يتطرق إلى سيرة الحزن ولا يريد أن يتكلم عن الموضوع المحزن، ولكن يريد أن يتكلم عن موضوع آخر.

لعلك وأنت تطلب رغيفًا، يريد هو أن يعطيك جوهرةً فائقة

الثمن. وهنا سيكون من الغباء أن ترفض الجوهرة متمسكًا بالرغيف، هو يريد أن يعطيك جوهرة. ولذلك يقول طوبى للقلب الذي يشعر برياح التغيير، فيفرد قِلع مركبه لكي ينساب في الاتجاه الصحيح. لكن كيف نفرد القِلع؟ المحبة تعلِّم الانسان التمييز، وتجعل الانسان يُتقِن من خلال علاقة الحرية أن لا يستميت في طلب معين ويثبت عليه إلا إذا كان من الأمور التي يجب أن يستميت فيها حتى لو بدت أنها لن تستجاب: كأن أكون في خطر الموت، لا أقصد الموت الجسداني، بل أن يكون إيماني معرَّضًا للضعف. أو أن أكون مجربًا ومُحارَبًا ولا يبدو أي أثر للانتصار. أو أكون في محنة مؤلمة ويبدو أنني لا أستطيع المقاومة، أو في صراع وجهًا لوجه مع الشيطان. هنا حتى لو بدا أن هذا الطلب مرفوض، لا بُد من الاستماتة فيه؛ لن آكل، لن أنام، لن أقوم بأي عمل، فقط يجب أن أستميت في هذا الطلب، لأن الخسارة هنا معناها في النهاية أن مركبتي قارَبت على الغرق. لكن لا يجب أن أستميت في طلب موهبة معينة. لكن يجب أن أستميت في طلب الأُم التي تُنجب جميع البنين، أي جميع الفضائل، ألا وهي المحبة، فإذا أمسكتُ بالأُم، استطعت أن أُنجب منها بنين. إذا طلبت المحبة تُعطى لي المواهب الأخرى، لأن المواهب الأخرى بدون محبة أمرٌ في منتهى الخطورة.

فإذن كما يقول الأب يوسف؛ أعرف كثيرين سلكوا طريق الاتحاد وتراجعوا، لأنهم قدَّموا صلوات لم تستجب، فأصيبوا باليأس. يقول إن اليأس مثل الحمى، تأتي للإنسان في الساعة التي لا يريدها. تصور أنك تريد أن تعمل عملًا كبيرًا جدًا، وفجأة تصاب بنوبة من نوبات الحمى، فقال إن اليأس يعطِّل الإنسان، فيعتقد أنه فقد الاتحاد، فإذا طلبت أشياء كثيرة جدًا والمسيح لم يعطني شيئًا أو أجَّل الاستجابة، فأتصوَّر أنه تركني أو أهملني، بالصورة التي وردت في إنجيل مرقس، حيث المركب معذَّبة وهو نائم، فيذهب إليه بطرس ويقول له يا معلم أما

يهمك أننا نهلك؟ (راجع مر ٤: ٣٥ - ٤٠).

ليل النّفْس الطويل

إذن، هذه هي موانع الاتحاد الحقيقية. ولذلك علينا أن نبدأ من حيث لا توجد صورة خيالية. وهذه الحالة يسميها الآباء «ليل النّفْس الطويل»، ويمكن أن نقرأ عنها عند الآباء النساك كلهم. واحد من أساتذة الحياة الروحية في أسبانيا (يوحنا الصليب) كتب عنها كتابًا كبيرًا[٦]، وهو ما يعني أن تكون العلاقة كما لو كانت في عتمة، حيث لا صورة واضحة، ولا أي بريق من النور، لأنك تضطر بشكل مستمر إلى أن تحذف الانفعالات، تحذف الصور، تحذف المقاييس العقلية التي لا تنطبق على اللاهوت. جميع الآباء يقولون إن الله لا يترك النفس في هذه الليلة المظلمة، وإنما يأتي ليقول ليكن نور، فيشرق النور. يبدأ النور في التسلل إلى النفس عندما تجوز معرفتنا في عملية تنقية، وبالتالي تُعد فترة الظلام هذه فترة أساسية جدًا في تنقية العقل من الاستنتاجات الخاطئة والصور الخاطئة والأفكار الخاطئة والتشبيهات التي لا تنطبق على الله إطلاقًا. وعندما تتنقى المعرفة عندئذٍ يبدأ الاتحاد بالمعرفة، بالعقل. والعقل هنا لا يُقصَد به المخ بالمعنى التشريحي، ولا حتى العقل بالمعنى الفلسفي، إنما العقل هو عنصر إدراك عند الإنسان، ويسمى أيضًا عند الآباء بالقلب[٧]، وليس هناك فرقٌ بين الكلمتين في الأدب الروحي.

ولذلك، يؤكد الآباء على ضرورة الاهتمام بالصلوات الطويلة، أو الصلوات القصيرة التي تُرَدَّد بصورة مستمرة، لماذا؟ لأن الصلوات

---

(٦) راجع الليل المظلم، يوحنا الصليب، نقله عن الأسبانية الأب اسطفان طعمة الكرملي، بيروت ٢٠٠٣.

(٧) راجع ذلك في أكثر من موضع في عظات القديس مقاريوس الكبير.

القصيرة التي تتردد باستمرار تنقي عقل الانسان، مثل صلاة يسوع؛ يا ربي يسوع المسيح ابن الله الحي ارحمني أو صلوات المزامير. وكلما أكثرنا من الصلاة، وكلما طال القداس، كلما تنقى عقل الإنسان. ولذلك، لن يوجد اتحاد بدون الصلوات الطويلة، حتى إذا كانت هذه الصلوات تُقاطَع بفكر مشوش، بل وحتى إذا كانت باردة ولا طعم لها، لا مفر من أن يُخلع من قلب الانسان الاهتمام بالذات. لأن الاهتمام بالذات هو أكبر عقبة تغلق على الإنسان الرؤيا الحقيقية، وأكبر عقبة أن يكون الإنسان محصورًا في ذاته ومشاكله، ولذلك يكون بعيدًا عن الله. لا يوجد ما يُدخِل الإنسان في مواجهة مباشرة مع الله إلا الصلاة بلجاجة وبكثرة ينبغي أن يُصلى كل حين وبلا انقطاع.

المعرفة الاختبارية

المعرفة أمر مهم جدًا في موضوع الاتحاد، ويمكننا أن نضرب لذلك مثلًا من الحياة الحسية؛ إذا كنت قد تعرفت على شخصٍ ما، ففي البداية تكون المعرفة المتبادلة قليلة، لكن بمرور الزمن تقوى العلاقة بسبب الاتصال واللقاءات المتعددة. هكذا حال النفس مع الله. ما الذي يقوي العلاقة مع الله؟ الشركة، التجارب، الصلوات، الآمال، الرحلات التي صهرت هذه العلاقة. ويمكن أن نأخذ مثالًا آخر، وهو الأسرة التي تبدأ في التكون بين اثنين؛ الزوج والزوجة هذه العلاقة لا تخلو من السلبيات والإيجابيات. هكذا أمر علاقة الإنسان بالمسيح؛ يدخل الإنسان بكل سلبياته في علاقته بالمسيح فتعكس هذه العلاقة السلبيات والايجابيات، وذلك كما يقول يوحنا كاسيان: عندما تتحدث عن محبة الله، أرني كيف أحببت قبل أن تعرف الرب، وكيف اختبرت المحبة؟ كذلك يقول القديس باسيليوس الكبير في مقالة له عن الأدب الوثني: الآداب الوثنية نافعة ومضرة، فعن ضررها يقول

إنها تعلِّم الشبان المحبة الحسية وهذا يشكل خطورة كبيرة على فكرهم وعقلهم، ولكنها لا تخلو من أشياء إيجابية، لأن شأنها طبعًا شأن أي معرفة عقلية تجعل العقل يتفتح ويكتسب معارف جديدة فيها منطق وفيها فلسفة.

كيف تحب؟ وما هي رغباتك؟ يقول الآباء لنا ليس من حدٍّ للاتحاد بالله، الطريق مفتوح، لك أن تجري فيه بقدر ما تستطيع، ليس من حدٍّ يقف عنده الاتحاد، والمثال الكامل للاتحاد، هو المسيح، المهم أن يكون لديك الإرادة.

فإذن، ماذا نفعل عندما نتناول؟ يقول لنا الآباء، يجب أن نحذف السلبيات، أي العواطف والخيالات، عندما تأخذ الإفخارستيا في فمك لا تركز على الطعم الذي في الفم، ولا تركز على ما تشعر به. التناول يبدأ بالسجود، وإن لم تسجد بالجسد فاسجد بالقلب. السجود خضوع، والخضوع اعترافٌ بألوهية الذبيحة، اعترافٌ بأن هذا الذي تأخذه هو ابن الله الكلمة. فإذا سجدت بقلبك فالرب يعطيك في تلك اللحظة ثمرة الاتحاد، وقد تكون هذه الثمرة فكرةً أو شعورًا أحيانًا، ولكن أيًّا كان الأمر، لا تقف لا عند الفكرة ولا عند الشعور، وإنما اطلب الرب نفسه. لا تكن مثل المرأة نازفة الدم التي اكتفت بأن تلمس طرف الثوب. صحيحٌ أنها شُفيت، ولكنها فقط عَرِفت المسيح كطبيب. عليك أن تعرف المسيح الكائن في حضن الآب، وليس فقط الطبيب. هو يعطينا لكن حواسنا غير مدربة، ليس لدينا اليقظة الروحية. أحيانًا يعطيك صمتًا طويلًا، صمتًا وهدوءًا تامًا؛ هذه دعوة لكي نتأمل، فإن كنتَ قد سمعتَ القراءات جيدًا واختزنت كلمة الله في قلبك، فحاول أن تتأمل ذاك الذي أقام ابن الأرملة أو أعطى العشاء للتلاميذ أو نفخ في وجه التلاميذ وقال اقبلوا الروح القدس أو تجلي على جبل طابور.

هذه دعوة للتأمل، ولذلك مطلوب من كل واحد منا أن يفحص الموقف الخاص به، والذي هو فيه. انظر أين أنت، هل صَمَتَ الله تمامًا ولم يُعطِك شيئًا، أو هو يطالبك بالسجود لأن قلبك لا زال غير مدرب، أم أعطاك كلمة، أم يطالبك بأن تتحد روحيًا بالموجودين حولك الواقفين يتناولون معك بالفرد وبالاسم وبالشخص وبالذين تراهم؟

لا تنشغل بالانفعالات. مار اسحق يقول إن المبتدئين يريدون أن يثبتوا محبتهم للمسيح فيقولون له أشياء كثيرة، ونسوا أنه فاحص القلوب والكُلى، انظر إلى تناقض المبتدئ مع نفسه، لماذا يكون الهجوم عليه عنيفًا؟ الله يعرف هذا الهجوم ويراه، بل ويراه حتى قبل أن يبدأ في قلبك. ونحن نظن أننا على قدر هجومنا على المسيح بالانفعالات، على قدر ما تكون علاقتنا بالمسيح قوية. هذا الكلام غير صحيح. يقول مار اسحق أيهما أجدى؛ أن تقف أمام فاحص القلوب والكُلى وتقول افحص قلبي يا الله، امتحني، اختبر قلبي وكُليتي ونقني، وأن تعرض جراحاتك عليه جرحًا جرحًا وتطلب منه أن يشفيها، أم أن تهجم عليه مثل الكلب الذي يرحِّب بسيده لكي يأخذ في نهاية الأمر عظْمةً؟ صحيح أن المرأة قالت للمسيح إن الكلاب تأخذ من الفُتات الساقط من مائدة أربابها، لكن يجب أن نتيقن من أن المسيح لم يأتِ للكلاب، بل للخراف، وهناك فرق كبير جدًا بين الكلاب والخراف؛ قد يسير الكلب وراء صاحبه طوال المشوار، ولكنه لا يكف عن التطلع يمنةً ويسرة. أمَّا ما يميز الخروف أنه يسير مع الراعي حتى في البرية وهو يعلم أن الراعي في النهاية سيقوده للمراعي الخضراء. علينا أيها الأخوة أن نكف عن القلق والسجس، ونكف عن الانقسام والاعتماد على الجهاز العصبي لأنه قد يُستهلك ويشيخ وتصبح علاقتنا بالمسيح عملية انفعالية محضة. ولكن لنبدأ من حيث نحن لكي نصل إلى حيث يريد المسيح.